الأمير خالد والشيخ عبد الحميد بن باديس: دراسة مقارنة.

د. لحسن جاكر*

مقدمـــة: شهدت الفترة الممتدة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى والذكرى المائوية للاحتلال الفرنسي للجزائر 1918-1939، بروز شخصيتين واجهتا السياسة الاستعمارية، وهما الأمير خالد والشيخ عبد الحميد بن باديس. إن الخوض في دراسة الرجلين، والمقارنة بينهما تكتسي أهمية بالغة، بالنظر إلى انخراطهما في النضال، والعمل الوطني، و وجود قواسم مشتركة عديدة، ونقاط اختلاف صبت كلها في مصلحة واحدة، هي مصلحة الجزائر.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، يجب القول أن أهمية الموضوع قد تبرز أيضا في الإصلاح الذي دعا إليه الرجلان، إصلاح يطغى عليه السياسي عند خالد، وإصلاح يغلب عليه الثقافي، والاجتماعي عند ابن باديس.

أما النقاط التي اعتمدنا عليها في إجراء هذه المقارنة فهي كالآتي:

الأسرة: تنتمي الشخصيتان إلى أسرة جاه وعلم. فالأمير خالد ينحدر[1] من عائلة شريفة، قادت المقاومة المسلحة في الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر الذي أسس الدولة الجزائرية الحديثة 1832-1847 وحملت لواء العلم والثقافة من خلال تأسيسها معهد القيطنة العلمي الذي اكتسب شهرة، وتردد عليه الطلاب من عدة بلدان عربية و إفريقية للدراسة على يد كبار العلماء من أمثال الشيخ عبد القادر المشرفي صاحب كتاب "بهجة الناظر" والعلامة أبي الراس الناصري المعسكري، و ذلك منذ العهد العثماني.

إن المكانة العلمية والتاريخية للعائلة التي أسس جدها مصطفى بن مختار أكبر أهم زاوية قادرية في الجزائر في القيطنة، قد ساهمت إلى حد كبير في تكوين الأمير خالد الذي تلقى ثقافة مزدوجة، عربية وإسلامية في دمشق، وغربية في ثانوية لويس لوغران، louis le grand ومدرسة سان سير

*أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر– شعبة التاريخ– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة مصطفى اسطمبولي– معسكر، وعضو في مختبر تاريخ الجزائر– جامعة وهران1 أحمد بن بلة.

العسكرية بفرنسا،مكنته من فهم الواقع في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، وبالتالي قيادة المقاومة السياسية بعد الحرب الكبرى. شأنه شأن الأمير خالد، ينتمي عبد الحميد بن باديس[2] إلى عائلة مشهورة في الجزائر، و المغرب العربي منذ قرون.

كان جده الأول بلوكين بن زيري بن مناد من قبيلة صنهاجة الأمازيغية قد عينه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سلطانا على إفريقية والمغرب الأوسط من 362 إلى 373هـ[3]. أما أبوه مصطفى بن مكي فهو من حملة القرآن الكريم، ومن أعيان مدينة قسنطينة، صار نائبا في المجلس العمالي لقسنطينة، وعضوا في المجلس الجزائري الأعلى[4]، وبالإضافة إلى شهرتها في مجالات العلم، والسياسة فإن عائلة ابن باديس اشتهرت أيضا بالثراء بفضل أمه زهيرة المنحدرة من أسرة عبد الجليل[5].

هكذا فإن البيئة التي نشأ فيها الرجلان، والظروف المناسبة التي وفرتهما عائلاتهما في مدينتين كبيرتين كدمشق، و قسنطينة قد فتحت الطريق أمامهما للظهور، الواجهة ولعب الأدوار الأولى في تاريخ الحركة الوطنية.

الخطاب: لما كان الخطاب الموجه إلى الجماهير، وطريقة إلقائه أداة أساسية، ووسيلة هامة تعتمد عليه القيادات السياسية، والعناصر الوطنية في توجيه تلك الجماهير، وتعبئتها للعمل الوطني، راهن الأمير خالد، والشيخ عبد الحميد بن باديس عليه للوصول إلى الجزائريين، وتوعيتهم. إن الأمير خالد والشيخ ابن باديس أبدعا في الخطاب، وكانا بارعين فيه، يأخذ الأول الكلمة بلغة الشعب، ويتوجه إلى مستمعيه باللغة الدارجة، غير أن الخطبة التى ألقاها في فرنسا سنة 1924م بعضها باللغة الفرنسية، وموجهة إلى الفرنسيين، وبعضها الآخر باللغة العربية، قد تمت ترجمتها إلى الفرنسية، وطبعها في كراسة (Brochure)[6].

لا يمكن للمرء أن يدرك أهمية الخطاب لدى الأمير خالد إلا من خلال الموضوعات المطروحة، وطريقة شرحها، وتوضيحها للجماهير. وقد كان "الاتحاد" موضوعا لخطابه الذي ألقاه في مدينة عين الدفلى لدعم مرشحه في الانتخابات البلدية أحمد غرسي، و هو الخطاب الذي أراد التأكد فيه من فهم الجماهير معنى الاتحاد، والظهور بمظهر الشخص الذي لا يختلف عنهم، وذلك من خلال جمع عدد من العصي في حزمة، ومطالبة رجل قوي البنية لكسرها، ومطالبة آخر نحيل الجسم

بكسر عصا واحدة فقط؟ وأمام فشل الأول ونجاح الثاني، استطاع الأمير خالد أن يبرز بأن في الاتحاد قوة [7].

أما بالنسبة للشيخ عبد الحميد بن باديس الذي يتحكم في اللغة العربية، ويدرك قواعدها، فإن الله أتاه الحكمة، وفصل الخطاب فهو يملك السلاحين وزيادة. و لا رأيته يخطب لصغر في عينيك كل خطيب عرفته. و يمتاز بأنه لا يؤثر في الجماهير، وغيرهم بقوة فصاحته، وسحر بيانه فحسب، بل بقوة إيمانه بما يقول كذلك[8]. إنه خطيب الجميع، يخطب في جماهير الشعب بالملعب البلدي، وفي قاعة الماجستيك بالعاصمة. وكان يقاطع إثر كل جملة ينطق بها بتصفيق حاد، وهتاف متواصل. وقد يتألف الجمهور من عناصر مختلفة في التكوين، والاتجاه فيؤثر فيها جميعا[9].

إن براعة ابن باديس جعلته يرتجل خطبه ارتجالا في معظم المناسبات، ويرتب أفكاره التي تأتي متسلسلة، ولا يخل بها شيء من استطراد، أو إعادة لما قيل[10]، ويشير بذراعيه العاريتين إشارات ترافقها نبرات صوت عالية، تخترق أحيانا طبقات الفضاء، وتكتسي أحيانا أخرى هدوء العظمة والجلال...[11]

لا شك أن الموهبة الخطابية الفذة التي يتمتع بها، وشخصيته الباهرة التي اجتمع فيها صدق اللهجة، وقوة الحجة، وفصاحة اللسان، وبلاغة البيان، وشرف النفس، ونبالة النسب والحسب، واستقامة السلوك، والثبات على المبدأ هي التي جعلت الجريدة الفرنسية لوبوتي ماتين Le Petit Matin الصادرة في تونس، بمناسبة خطاب ابن باديس في ذكرى وفاة الأستاذ بشير صفر تقول[12]: "...يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام... يستطيع أن يفعل في الجموع التي كانت بالأمس تستمع إلى خطابه. كان يستطيع أن يجعل منها أسرابا من الطيور الكاسرة، أو قطيعا من الخرفان .وهذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة".

يبدو مما سبق أن الرجلين يشتركان في موهبتهما، وتأثيرهما في الجماهير التي كانت تستمع إلى الأمير خالد وهو يتكلم بالدارجة، والعربية الفصحى والفرنسية، و إلى ابن باديس، وهو يخطب باللغة العربية الفصحى .

اللباس: إن امتلاك وسائل التعبير عن الشعور الوطني، والتحكم في اللغة، وطريقة مخاطبة الجماهير، لم تكن كافية لإلهاب عواطفها، وإيقاظ شعورها، وتعبئة نفسيتها، ووجدانها للدفاع عن العروبة، والإسلام، والوطن في ظروف اتسمت بطغيان الاستعمار. من هنا كان لابد على

الزعيمين الوطنيين الحرص على ارتداء اللباس العربي الجزائري لإبراز الخصوصية الجزائرية، والاختلاف عن الآخر.

لقد كان الأمير خالد يعبر من خلال لباسه، عن هوية الجزائريين، ويعطي لشخصه صفة الزعيم، وهو يرتدي غندورة بيضاء وبرنوسين، واحد أبيض من الصوف، وآخر أسمر داكن من شعر الإبل، و عمامة (كنبوش) جزائرية، وحذاء محلي[13]. أما الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد كان هو الآخر يرتدي اللباس العربي الجزائري التقليدي الذي يتشكل من العباءة الجزائرية، بالنظر إلى ثقافته العربية الإسلامية، فإنه ذكر أنه لا يوجد عندنا لباس مفروض على مسلم دون الآخر. و ما على المسلم إلا أن يراعي في لباسه ما يناسب مقامه، دون أن يتقيد بزي خاص مادامت الصورة لم تحتم عليه كأن يكون مثلا جنديا.

البرنامج والمواقف: إن الحديث عن حركة الأمير خالد، وحركة الشيخ عبد الحميد بن باديس، والمقارنة بينهما يجعلنا نقف عند ملاحظة، ألا وهي أن لقب "الأمير" الذي يحمله خالد يرمز إلى السلطة، والسياسة ولقب "الشيخ" الذي يحمله ابن باديس يرمز إلى المكانة الدينية و العلمية لزعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر. وينبغي أن ندرك بأن هذه الملاحظة تدفعنا إلى القول أن حركة الأمير خالد لم تكن دينية، بل كانت سياسية، وطنية أكثر مما هي دينية، وأن حركة ابن باديس كانت حركة إصلاحية ثقافية، اجتماعية أكثر مما هي سياسية. و للوقوف على هذه الحقيقة، ما علينا إلا أن نذكر بعض النقاط التي احتواها برنامج، و مواقف الحركتين.

فبالنسبة لحركة خالد، فإن برنامجها تضمن على وجه الخصوص مايلي:[14]

– تمثيل الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة متساوية لنسبة عدد الكولون.

– إلغاء كامل القوانين الاستثنائية والإجراءات المتخذة ضد الجزائريين فقط، وإلغاء المحاكم الرادعة، والمحاكم الجنائية، ونظام المراقبة الإدارية.

– المساواة في المسؤوليات والحقوق مع الفرنسيين بخصوص الخدمة العسكرية.

– دخول الجزائريين إلى كل المراتب المدنية والعسكرية دون تمييز غير تمييز الجدارة والقدرة.

– حرية الصحافة والاجتماع.

– تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية الفرنسية على الجزائر.

– فصل الدين عن الدولة الفرنسية.

يبدو مما سبق أن مطالب خالد، كانت سياسية بالدرجة الأولى خاصة إذا علمنا أنه شارك، وفاز في الانتخابات البلدية سنة 1919. ولكنها لم تكن تخلو من مسألة الدين، كما أنها صارت أكثر خطورة بالنسبة لفرنسا عندما قدم حفيد الأمير عبد القادر رسالة إلى الرئيس الأمريكي ولسن يوم 23 ماي 1919 يطالب فيها بوضوح، بحق تقرير مصير الجزائريين، ووضع الجزائر تحت وصاية عصبة الأمم[15].

وبالإضافة إلى مطالبته بفصل الدين عن الدولة الفرنسية، أدرج مسألة الدين في خطبه، ومقالاته الصحفية بمناسبة الانتخابات البلدية سنة 1919 حيث قال للجزائريين: "صوتوا للقائمة الإسلامية إذا أردتم ألا يتم تسيير شؤونكم من طرف الرومي ... إذا أردتم جنة الإسلام اختارونا لأننا مؤمنين..."[16].

إن خالد بمجرد أنه طرح فكرة المساواة بين الجزائريين و الفرنسيين، ثارت ثائرة الصحافة الفرنسية التي اعتبرت أنه في حالة منح فرنسا لستة ملايين جزائري نفس الحقوق التي تمنح للمواطنين (الفرنسيون) مثلما يطالب خالد، فإن هؤلاء سيحافظون على قوانينهم الشخصية، و ينشئون دولة داخل دولة مناوئة لفرنسا، والأفكار الجمهورية بكل بساطة[17]، أما الكولون فإنهم كانوا يرون فيه أكبر عدو، ويقدموه على أساس أنه خطير.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمير خالد جعل من شخصه النموذج الأول للحركة الوطنية بعد الحرب الكبرى، ومن حركته خليط بين السياسي والاجتماعي، كما اعتبر أن الدين بالنسبة إليه جزائريته Algérianité، وأن الأهم هو القدرة على ترقية المقاومة ضد الفرنسيين، واستغلال بشكل براغماتي كل المؤثرات، ما دام أنها تخدم "اتحاد الجزائريين". أما معنى الأمة عنده فإننا يمكن أن نلمسه في ما كان يسميه الأمير عبد القادر "الوطن الجزائري"، وأيضا في إتحاد الرجال وسكان الجزائر أصحاب الأرض الذين كانت تطلق عليهم جريدة "الإقدام" "الجزائريون المسلمون"، بل "الجزائريون"، وتتحاشى ذكر اسم آخر لا معنى له.

إن بروز الأمير خالد على رأس الحركة الوطنية الجزائرية قد يعتبره البعض أمرا غريبا بعض الشيء إذا علمنا أنه كان ضابطا في الجيش الفرنسي. لكن هذا الاعتقاد قد يتبدد عندما يتضح لنا أن الأمير خالد ظل تحت مراقبة مستمرة خاصة بعد فرار الملازم الأول بوكابويه في ربيع 1915 حيث

أقدمت السلطات الاستعمارية على حرمانه من مهمتين إلى المشرق العربي والمغرب الأقصى، ومنحه إجازات كثيرة، بل وسحب فرقة السبايس sphahis التي ينتمي إليها من الجبهة[18].

إذا كان الأمير خالد قد أسس حزبا سياسيا هو حزب "الإصلاح" سنة 1919، فإن الشيخ ابن باديس اختلف عنه، وراح يترأس جمعية إرشادية تهذيبية، لا تتدخل في السياسة كما جاء في قانونها الأساسي، وهذه الجمعية، هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

لكن يجب أن لا يغيب عن البال أن ابن باديس بدأ حركته بالتعليم في الجامع الأخضر بقسنطينة سنة 1913 حيث تخرج على يده العديد من التلاميذ الذين صاروا مدرسين في مدارس الجمعية من أمثال أحمد حماني، حسن فضلاء، و با عزيز بن عمر، والأكحل شرفاء وغيرهم.

إن الإصلاح الذي يدعو إليه ابن باديس أساسه إصلاح التعليم كما يبدو في كتاباته:" لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم... ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم..."[19] ومن هذا المنطلق راح يفتح المدارس لتعليم الجزائريين، بل وتطوير التعليم ليصبح حديثا من خلال عقد مؤتمر المعلمين سنة 1936، وهو المؤتمر الذي وضع تخطيطا يُسيِر التعليم العربي الحر. و وحد برامج التعليم، ومواده، وقال بشأنه الإمام ابن باديس: "قد نجحنا في سيرنا إلى الأمام ... المؤتمر أكبر خطوة خطوناها..."[20].

إذا كانت الفترة التي ناضل فيها الأمير خالد قصيرة، وانتهت بنفيه سنة 1924، فإن الفترة التي عمل فيها ابن باديس، كانت طويلة وسمحت له بفتح المدارس، والنوادي، وإنشاء الصحف التي دشنها بجريدة "المنتقد" التي اعتبرها الجريدة التي انطلقت منها دعوته للإصلاح: "كانت أول دعوة للإصلاح الإسلامي أعلنت في الشمال الإفريقي على لسان الصحافة هي دعوتنا منذ بضع عشرة سنة في جريدة المنتقد الشهيرة وفي خلفها الشهاب[21].

وبالإضافة إلى أهمية التعليم مثُل الإسلام بالنسبة له عاملا أساسيا في نهضة الجزائر التي تقوم كلها على أساس الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة. معنى هذا أنه سار على نهج جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده في إقامة الدعوة الإصلاحية، وتمسك بالمذهب المالكي من خلال ختم موطأ الإمام مالك[22]. أما بالنسبة للبعد السياسي لدى ابن باديس لا يمكن تصوره إلا إذا تأملنا في محتوى الوثيقة التي عثرنا عليها في الأرشيف الوطني الفرنسي بإكس بروفنس بفرنسا، وهي الوثيقة التي تضمنت كلمة ابن باديس في ماي 1939 بمدينة بسكرة حيث قال فيها [23]: "التقيت ابن

جلول، فرحات عباس، الأخضري في قسنطينة وقلت لهم، أنهم أخطأوا عندما صدقوا الإدارة التي وعدتهم بمنحهم الحقوق السياسية خلال الأيام المقبلة. سأنتظر إلى غاية 15 ماي. إذا لم يطرأ جديد في هذا التاريخ سوف أسترجع حرية التصرف تجاه التكتلات... تعطينا الحكومة وعودا لتخدعنا... إنني مستعد للكفاح وتحمل السب، إذا تطلب الأمر، لكن يجب أن يسيروا ورائي اليد في اليد".

وفي نفس الوثيقة يذكر التقرير الفرنسي أن ابن باديس أكد أيضا أن الجزائريين لا يمكنهم الحصول على حقهم إلا بالقوة، كما أنه يجب عليهم أن يكونوا مستعدين بكل التضحيات[24]. يتضح مما سبق أن كلمة ابن باديس، شكلت منعطفا في مواقفه، وذلك لأنها تضمنت استعمال القوة من أجل استرجاع الحقوق، وذلك غذاة اغتيال مفتي الجزائر كحول بن دالي، ورفض فرنسا مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري .

خلاصة القول أن الأمير خالد من خلال نشاطه السياسي استطاع أن يدق الناقوس، وأن ينبه الشعب إلى ضرورة استئناف الكفاح السياسي، وبذلك ساعد في إيقاظ الوعي الجزائري الذي آل إلى الغفلة، كما أنه فتح الطريق أما التيارات الوطنية الجديدة التي كثيرا ما كانت تعتبره ضمن مرجعياتها، بخاصة نجم شمال إفريقيا الذي أبقى على جريدة الإقدام لعدة سنوات واعتبر خالد رئيسا شرفيا للنجم. أما عبد الحميد بن باديس فقد ترك جيلا من التلاميذ سار على خطاه بعد وفاته، وساهم في محاربة الجهل وتحرير الجزائر.

الهوامش:

1– هو خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر. ولد في دمشق سنة 1875 حيث تلقى تعليمه العربي الإسلامي. انتقل به والده إلى الجزائر سنة 1892.

2– ولد عبد الحميد بن محمد مصطفى بن مكي بن بلديس في عام 1889 في أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء. درس في تونس، وتنقل في البلاد العربية. ترأس جمعية العلماء إلى غاية وفاته عام 1940.

3– بركي رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر (الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981)،ص 161.

4– عمار طالبي : ابن باديس حياته وآثاره (الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية 1968) ج1، ص 74

5– نفس المرجع.

6- Gilbert Meynier, l'Algérie révélée (Alger éditions Droz) p.720--- 7- Ibid , p.727

8– باعزيز بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي (الجزائر:منشورات الحبر 2008)، ص، 57--- 9– نفس المرجع.--- 10– نفس المرجع.--- 11– تركي رابح، نفس المرجع، ص 187 .

12- Le Petit Matin du 19.05.1937 --- 13- Gilbert Meynier, op.cit p.727

14- Ferhat Abbas : La nuit Coloniale (Paris : Editions Juliard 1962) p.

15– أبو القاسم سعد الله، عريضة الأمير خالد إلى الرئيس ولسن 1919، مجلة التاريخ. الجزائر، ديسمبر 1981، ص5

16- Gilber Meynier, Op.cit, p. 720.--- 17- Echo d'Alger du 10.07.1920 et Gilbert Meynier, Op.cit, p. 96.--- 18- Gilbert Meynier, Op.cit, p. 417.

19– لشهاب : 10 أكتوبر 1934.--- 20– با عزيز بن عمر،نفس المرجع، ص، 42.--- 21– الشهاب، عدد يناير 1937.

22– با عزيز بن عمر، نفس المرجع، ص 40– 41.

23- ANOM – 9H45 – CIE – Alger 05.05.1939.--- 24- Ibid

Abstract: The period between the 1st world war and the centenary anniversary of the French Algeria occupation 1919 – 1930 appeared two national personalities against the colonization policy. They are Emir Khaled and Sheikh Ibn Badis that they had common points mainly for the families rank from the political, historical, social, instruction point of view even the traditional clothes what let them meet in some program points.

The reformation led by Emir Khaled was much political comparing with Ibn Badis whose was essentially socio-cultural. When Emir Khaled vented his party he called for eality in 1919 and asked for autodetermination the American president Wilson in a letter. For Ibn Badis it was the reference to the Koran and the prophetic tradition in addition, the reformation of teaching was fundamental.